المحاضرة الثامنة والثلاثون: أهم المداخل أو المناهج والنظريات الرمزية في دراسة المجتمع:

ظهرت المناهج والنظريات في الستينيات وتبلورت في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين. وبظهور المناهج والنظريات الرمزية جرى تحول من الاهتمام بدراسة السلوك والبناء الاجتماعي والنسق الفكري المجرد والمنعزل عن واقع الحياة الاجتماعية إلى الاهتمام بدراسة المعاني والرموز واللغة والإدراك، وأصبحت الحياة الاجتماعية تدرك وتفهم على إنها تؤلف حوار أو نص text أو نسيج من المعاني.

لعل من أهم مميزات المدخل الرمزي هو انه لا يهتم بالمعنى الحرفي للسلوك أو الفعل أو الظواهر الثقافية بصفة عامة بل يركز على المعنى أو المغزى الكامن فيها. فالمدخل الرمزي يميز بين المعنى الرمزي الظاهر لتلك الظواهر وبين معانيها الرمزية التي تجعلها تتسم بالأهمية والقيمة في نظر أفراد المجتمع. ويهتم المدخل الرمزي بالمضمون والمحتوى وهدفه الرئيسي هو تقديم وصف تفسيري شامل (من وجه نظر الأفراد المدروسين) لمعنى ومغزى بناء النص أو الشعيرة مع الاهتمام الخاص بإظهار الروابط والعلاقات الداخلية المجازية أو التشبيهية داخل النص أو الشعيرة أو النسق الثقافي ككل. والمدخل الرمزي يدرس الجوانب المعرفية والوجدانية والأدائية والتعبيرية لظاهرة معينة مع التركيز على الأبنية الأيدولوجية الواسعة وعلى روح الثقافة داخل تلك الأبنية. ولا يهتم المدخل الرمزي بتأسيس نظرية عن أسباب الظواهر الثقافية

والاجتماعية بل يهتم في المحل الأول بتقديم وصف تفسيري لتلك الظواهر (كما يفهمها أفراد المجتمع المدروس).

ومع توسع وانتشار الدراسات الرمزية تعددت المناهج والنظريات لكن يمكن إجمال أكثر تلك المناهج شيوعاً وانتشاراً وتأثيراً في مدخلين رئيسين:

أولا_ المدخل البنيوي الرمزي ويمثله ديفيد شنايدر David Schneider

ثانيا_ المدخل الوصفي التفسيري أو الاثنوغرافي، وهذا المدخل يقسم إلى قسمين كبيرين احدهما بزعامة فيكتور تيرنر ويهتم بالشعائر والعمليات الاجتماعية والرموز المتضمنة فيها، وثانيهما برعاية كليفورد جيرتز Clifford Geets ويهتم بالوصف الاثنوغرافي المكثف ومعالجة الثقافة والمجتمع على إنها نصوص يمكن قراءتها وفهمها.

أولا_ المدخل البنيوي الرمزي:

يتزعم هذا المدخل، ديفيد شنايدر، تعني الثقافة عند شنايدر نسق أو بناء رمزي يمكن تعريفه من خلال العلاقة الموجودة أو القائمة بين عناصره والمنهج البنائي الرمزي يركز على العلاقات الداخلية بين عناصر النسق الرمزي مستهدفا تحديد الرموز الأساسية والبناء العميق للنسق ككل. فالثقافة يتطلب إن تدرس من خلال الحدود والمصطلحات الخاصة بها ويجب أن لا ترد إلى أي نسق أخر غير ثقافي.

شنايدر قدم دراسة متكاملة عن النسق الرمزي الثقافي، ولكن كان ذلك على حساب مفهوم الفعل الاجتماعي، فقد عزل شنايدر النسق أو البناء الرمزي وفصله عن الواقع الاجتماعي في سلوك وأفعال الأفراد. ويقول شنايدر مؤكداً على الاتجاه البنيوي التجريدي " إنني لست مهتما بوصف الأنماط الفعلية

للسلوك أو الفعل، أو بما يفعله الناس في الواقع عندما يقومون بأدوارهم، أو بالأدوار التي يشغلها الناس والتنظيمات العامة في السلوك أو فعل الأفراد (المجتمع المدروس)".

ويؤكد شنايدر بقوله إنني اهتم بنسق الرموز والمعاني وليس بالوصف، على أي مستوى. ان عناصر الثقافة تكتسب معناها من علاقة كل عنصر بالعناصر الأخرى المؤلفة لنسق قائم على الأضداد والتقابل الثنائي.

في دراسة شنايدر الرمزية للنسق القرابي في المجتمع الأمريكي يوضح تحليله لنسق القرابة في المجتمع الأمريكي ويؤسسه على مفهوم علاقات التقابل والأضداد الثنائية مع ربط ذلك بالقواعد والمعايير الثقافية السائدة في ذلك المجتمع. ويذهب شنايدر ان الحب يمثل الرمز الأساسي المحوري في نسق الثقافة الأمريكية. ويوضح ذلك بقوله ان هنالك علاقة تقابل بين الطبيعة والثقافة (متمثلة بالقانون). فالنسق القرابي الأمريكي يقوم على ذلك النوع من التقابل بين الطبيعة والقانون.

بمعنى أخر أن النسق القرابي كما يفهمه أفراد المجتمع الأمريكي يؤسس على عنصرين أساسيين هما الطبيعة والقانون وذلك من خلال مفهوم الحب المرتبط بهذين العنصرين. ويتمثل العنصر الطبيعي في الحب القرابي المؤسس على علاقة الدم يظهر في علاقة الآباء والأبناء أما العنصر القانوني الثقافي فيتمثل في علاقة الزواج والمصاهرة المحكومة بقواعد وقوانين منظمة للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة. إن الحب يربط علاقة الزواج (أو المصاهرة) وعلاقة الدم (أو القرابة) من خلال العلاقات المبنية. فالحب بمعنى العلاقة الجنسية هو فعل طبيعي ينتج عنه التكاثر والإنجاب. إذ إن الحب رمز للوحدة فالحب اتحاد

الأضداد الرجل والمرأة ولكن وحدة الأضداد لا تكون مؤكدة من خلال الزواج فحسب بل أيضاً من خلال إنتاج الاتحاد المتمثل في وحدة الدم بمعنى الطفل. فالطفل يجمع ويوحد في شخص واحد مكونات وعناصر بايولوجية وراثية من الأب وألام. وهو بذلك يمثل وحدة الدم في علاقته بالوالدين والإخوة والأخوات، وهذه الوحدة تمثل وحدة الحب القرابي المرتبطة اشد ارتباط بالجانب الجنسي بين الأب وإلام الزوج والزوجة.

ما يمكن قولة بصدد التحليل البنائي الرمزي الذي قدمه شنايدر عن النسق القرابي في المجتمع الأمريكي، بالرغم من انه يعد تحولا عن الدراسات الانثروبولوجية التقليدية لاسيما تلك المتعلقة بالدراسة البنائية الوظيفية للنسق القرابي بشكل عام. إلا إن هذا التحليل الرمزي عزل الجوانب الثقافية أو الرمزية عن الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية والتاريخية.

إن إغفال المضمون الاجتماعي والتركيز على العلاقات الشكلية الصورية بين الرموز المحورية أو الأساسية لا يحل مشكلة التنوع في الرموز الثقافية المرتبطة بالتنوع والاختلاف في الطبقة الاجتماعية والعمر والجنس. فضلا عن إن إهمال الجانب التاريخي ترك مشكلة ظهور نمو وتغير الرمز عبر الزمن من دون حل.